انقضاء المهدوية

يقول علماء الجيولوجيا ان القواعد التي غيرت وجه الارض رفعت جبالها وخفضت وهادها اكثرها ضعيف الفعل بطيء السير وانما تعظم نتائجه باستمرار مرور ادهار كثيرة . ولكن بعضها يثور ثورانًا تميد به كرة الارض فيفعل في ساعة ما لا يفعل غيره في عام . وحوادث الكون تجري هذا المجرى فإما ان تكون خفيفة بطيئة تستمر قرونًا كثيرة واما ان تكون قوية سريعة تفاجئ الخلائق مفاجأة و يشتد فعلها و يعظم شأنها ثم تذهب سريعًا كما جاءت ويعفى اثرها . ومن هذا القبيل قيام دولة المهدوية في اواخر القرن التاسع عشر واضمحلالها في السنة التاسعة عشرة من قيامها

فقد ابنّ في ما نقلناه عن كتاب سلاطين باشا (النار والسيف في السودان) ونشرناه في المجلد العشرين من المقتطف ان رجلاً من بلاد دنقلة اسمه محمد احمد قام سنة ١٨٨٠ وادّعى انه المهدي المنتظر فذاعت دعوته في بلاد السودان والتفّ عليه كثيرون من اهلها إما تخلصًا من جور الحكام او كرهًا لما أُجبروا عليه من إبطال الرق والخاسة او اعتقادًا بصدق دعوته فكتب الى جميع الاقطار السودانية يدعو الناس الى الجهاد وسمى اتباعه انصارًا وكانوا من العمالك المستضعفين واكثرهم عراة الابدان فاستخفّت بهم جنود الحكومة المصرية ولم تر ما يرغبها في محاربتهم اذ لا غنيمة من ورائهم اما هم فكانوا على الضد من ذلك جياعًا عراة فكل جندي يقتلونه يجدون معه ما يسدّ الرمق و يستر العري . وقد فصّلنا في الجزء الخامس والسادس من المجلد العشرين كيفية انتصاره على رجال الحكومة المصرية في مواقع كثيرة الى ان خرجت بلاد السودان من يدها وخضعت له

وقبل ان جاهر بدعوته جاءه رجل اسمه عبد الله بن محمد التعايشي (من التعايشة قبيلة من قبائل البقارة) وانتظم في طريقته وساعده على نشر دعوته . وكانت قبيلة عبد الله هذا من القبائل التي حاربت الزبير باشا حينما دخل دارفور فاخذه الزبير اسيرًا وامر بقتله ولكن تشفع اليه فيه بعض العلماء فاطلقه . و يقال انه جاء الزبير بعد إذ وقال له حلمت انك المهدي المنتظر واني ساكون من اول انصارك فانكر عليه الزبير ذلك . ولا يبعد ان يكون هو الذي سوّل الى محمد احمد الادعاء بالمهدوية . ومهما يكن من ذلك فان محمد احمد نجح في دعوته وجعل عبد الله التعايشي خليفته الاول وتوفي في اواسط سنة ١٨٨٥ وخلفه عبدالله هذا وكان داهية طاغية حريصًا على نفسه وملكه فاتم فتح السودان والتنكيل بالحاميات المصرية ففتح سنار وكسلا

ودنقلة وتمهد له منك واسع لو عرف ان يسوسه بالعدل والحكمة لاتخذ في السودان دولة قوية مثل اعظم الدول العربية ولكن عجزه في سياسته الداخلية وجهله في سياسته الخارجية اضعفاه واضعفا البلاد حتى كاد يخربانها ويقرضان اهلها فاثرت الحكومة المصرية والحكومة الانكليزية على استرجاع السودان منه وذلك سنة ١٨٩٦ ومن ثم اخذ النصر يتبع النصر الى ان فتحت جنودهم ام درمان عاصمته في الثاني والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٩٨ واجهزت عليه في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر الماضي

وكان حضرة وضن بك ياور اللورد كتشنر سردار الجيش المصري اول من شاهده قتيلاً في ساحة الوغى وقد شهد المعركتين الاخيرتين اللتين انقضت بهما المهدوية ووصفهما وصفاً حسناً في كتاب كتبه الى والدته فنقلنا منه بصورة منه فاقتطفنا منه ما يلي قال

"وصلت مع وشبت باشا الى فشودة على ١٨٠ ميلاً من ام درمان جنوباً فوجدنا جنودنا مجتمعة هناك فسرنا بها في الحادي والعشرين من نوفمبر الساعة الرابعة بعد الظهر بعد ما حملنا الجمال ماء يكفينا ٣ ايام وزاداً يكفينا ٨ ايام وبعد مسيرة ساعة ونصف خرجنا من الادغال والحواجز التي على ضفة النيل وحططنا الرحال وبتنا تلك الليلة حتى طلع القمر ثم سرنا وقوتنا مرتبة في شكل مربع وكنا نعلم ان احمد فضيل فرغ من غزواته على النيل وانه عائد بالذرة التي نهبها من الاهالي قاصداً جديداً حيث الخليفة عبد الله التعايشي نازل برجاله. فجددنا في السير الى ان التقينا به فوجدناه نازلاً في وسط احمة ملتفة الاشجار متربصاً لقتالنا فرآنا رجاله واطلقوا علينا الرصاص فاصابوا ضابطاً من ضباط اللجانة برصاصة في راسه واصابوا عسكرياً برصاصة في رجله ولكن اكثر رصاصهم مرّ فوق رؤوسنا وكانت الاشجار تحجبهم عنا فجعلنا نطلق مدافعنا ونتادفنا على معسكرهم فخرج مئتان منهم من بين الاشجار وحملوا علينا حملة منكرة وهجموا على مدافعنا حتى صاروا على ٩٠ متراً منها فالتقيناهم بنار حامية اكثتهم اكلاً ثم حملنا على المعسكر كالسيل الجارف فلم نبق ولم نذر وغنمنا الذرة الكثيرة التي كان احمد فضيل قد نهبها من الاهالي لكي يقتات بها الخليفة ورجاله في مسيرهم لشن الغارة على ام درمان. وقتل من الدراويش في هذه المعركة نحو ٣٠٠ نفس وجرح كثيرون منهم وقتل منا ثلثة وجرح سبعة وانهزم احمد فضيل فلم نظفر به. واسترحنا الى ما قبل نصف الليل ثم سرنا الى الصباح قاصدين محلة جديد فصرنا على سبعة اميال منها واشتد بنا الظمأ وطلبت الجنود الماء فوقفنا عن السير الساعة السابعة من صباح الثالث والعشرين من الشهر حتى شربت الجنود واستراحت نصف ساعة ثم استأنفنا السير وبعد قليل عادت الفرسان واخبرتنا ان الخليفة اخلى جديداً.

وارسلت شمس الضحى اشعتها على ظهورنا وكان الجو ساكتاً لا تهبُّ فيهِ نسمة تبرّد علينا فانهك السير الرجال لكنهم صبروا صبر الابطال حتى وصلوا الى جديد نحو الساعة العاشرة صباحاً وقضوا بقية نهارهم في الراحة وتناول الطعام واستقاء الماء ثم باتوا مصطفين للقتال

وخرج اليوزباشي محمود افندي حسين في جماعة من فرسان العرب الاستطلاع ثم عاد الينا عصارى النهار قائلاً انهم وجدوا معسكر الخليفة سيف ام دبركي على ٧ اميال منا فاعتمد ونجت باشا على مهاجمتهِ سحر اليوم التالي

وبعد انتصاف الليل بنصف ساعة سرنا من مبيتنا وكانت الفرسان تسير امامنا والمجانة على جانبينا حسب العادة وبعد ما سرنا ميلاً دخلنا ارضاً كثيرة الاشجار ولكن لم يكن تحت اشجارها انجم فسرنا تحتها الهوينا وكان حاملو البلط يقطعونها كلما سدَّت سبيلنا . وبعد سرى ساعتين ونصف قربنا من معسكر العدو ولم يبقَ بيننا وبينهُ غير ميل ونصف وكانت طلائعنا قد وصلت اليهِ تقريباً وكنا نسمع طبولهُ تقرع . ولما ازفت الساعة الرابعة وقفنا واضطجعنا ننتظر الفجر وراء ارض ترتفع شيئاً فشيئاً وتكسوها الاعشاب والاجم واستبدلنا طلائع الفرسان بخفراء من المشاة وقضينا ساعة كذلك . ولما لاح ذنب السرحان رأينا الخفراء راجعين ثم أُمرنا بتقلد السلاح لان العدو مقبل علينا فالتففنا واذا اشباح تلوح وراء الاجم امامنا فقمنا عليها اقواء الكسيم ولما اصبح الصبح جعلت المشاة تطلق البنادق وكان اكثر العدو لا يزال متوارياً وراء الارض المرتفعة وهو يجاوب المشاة بنار حامية الاَّ ان رصاصهُ كان عالياً فعبر فوق رؤوسنا من غير ان يضرنا . وكانت الاجمة قريبة من ميسرتنا فرأينا رجالهُ يخرجون منها ليدوروا حول ميسرتنا ولكن دار بركان من الاورطة التاسعة للقائهم ونزل يلوك من المجانة عن مجنهم ووقف عن يسارها فكان جناحنا الايسر كالبنيان المرصوص وعلى زاوية المربع هناك مدفعا بكسيم . وظل العدو يقاوي ميسرتنا عشر دقائق ولكن نيراننا الآكلة افتتهُ . ثم خطونا خطوات قليلة الى الامام فاشرفنا عليهِ واذا رجالهُ موسدو الثرى صفوفاً وراء صفوف على بعد ١٥٠ ذراعاً منا حيث قُتل حرس الخليفة ولم يسلم احد منهُ ووراءهُ اربعون او خمسون قتيلاً او جريحاً بعضهم حول بعض والخليفة عبد الله مكب على وجههِ بينهم . وكان بين القتلى غلام حي عمرهُ نحو ١٤ سنة فركض اليَّ وامسك يدي ودلني على الخليفة قائلاً هذا هو الخليفة . هذا ابي . فامرت بنقل جثتهِ الى جانب وأقمت الحراس عليها وارسلت ساعياً الى ونجت باشا اخبرهُ باني وجدت الخليفة مقتولاً . وكان المقتولون حولهُ من اكابر امرائهِ مثل احمد فضيل ويونس الدكين وكثيرين غيرهما ووراءهم خيلهم واكثرها مقتول ايضاً . وكان مشهدهم رهيباً اثر فيَّ تأثيراً شديداً لا انساهُ

طول عمري . فانهُ مهما كان خليفة ومرؤوسهُ قد ضلوا وغووا وخلوا العباد في حيرتهم لا يسع الانسان الاَّ الاعجاب بالشجاعة الفائقة التي لاقوا بها منيتهم

على اني لم استطع الوقوف طويلاً امام ذلك المشهد لانهُ كان لا بدَّ لنا من الاسراع الى معسكر الخليفة على بعد ميلين منا فجددنا اليهِ السير فوجدناهُ ممتطيًا "بالجيادية" الذين قاتلونا في الواقعة ثم رجعوا القهقرى لما تقدمنا اليهم فلما رأونا سلموا الينا كلهم . وكان هناك الوف من النساء والاطفال فحمدنا الله على بعدهم عنا وعدم وصول غيراتهم اليهم . ووجدنا ايضاً اسلحة كثيرة من بنادق وغيرها . ولم تنزف الساعة السابعة من صباح ٢٤ نوفمبر حتى انتهى القتال ولم يفرَّ من امامنا احد فاطاردهُ الاَّ عثمان دقنه الذي ولَّى الادبار حالما ابتدأنا باطلاق النار

وامرنا رجال الخليفة ان يدفنوهُ فدفنوهُ بمرأى منا في المكان الذي قتل فيهِ . ثم علمنا ان احمد فضيل لما نجا من معركة ابي عاذل عاد الى معسكر الخليفة في الساعة السادسة مساء ٢٢ نوفمبر واخبرهُ بانكسارهِ وبفقدهِ كل ما كان معهُ من الذرة والزاد فضاقت الارض بهِ واسودَّ الفضاء في عينيهِ لانهُ بات بلا زاد ووراءهُ بلاد خربة او مفاوز لا ماء فيها وامامهُ جنودنا زاحفة عليهِ فبات حائرًا في امرهِ ثم جاءهُ فرسانهُ عصر اليوم التالي يخبرونهُ بوصولنا الى جديد فقال انا نقاتلهم حتى نقتلهم او يقتلونا فصبر وقاتلنا حتى ادركتهُ منيتهُ . وكانت خسارتنا طفيفة وهي ٦ قتلى ونحو ٣٠ جريحًا" انتهى باختصار

وجيء بالاسرى من امرى الدراويش وهم شيخ الدين ابنهُ ومحمد احمد ابن الخليفة علي ولدحلو ومحمود صاحب واقعة الاتبرة ومحمد الزين الذي اُخذ اسيرًا في ابي حمد وخاطر حمدان وفضل الحسنه وكلاهما من امراء احمد فضيل وبونس دكيم والي دنقلة وبربر . والختيم موسى امير لايش جيء بهم مع نساء المهدي والخليفة واولادهما (وجملتهم ١٤٩ نفسًا) الى القاهرة مساء السابع والعشرين من دسمبر وسيرهم الى رشيد ووضعوا في التكنة العسكرية التي هناك وعينت لهم الحكومة ما يحتاجون اليهِ من طعام وشراب وكساء مما اعتادوهُ في بلادهم

هذه خاتمة ملك نشأ بالمكر وشيد بالبغي والاستبداد وليس الغرابة في زواله على هذه الصورة بل في بقائهِ الى الآن مع فساد اساسهِ وضعف بنيانهِ لكنَّ الذل اذا تمادى اماتَ النفوس والجور اذا توالى ازهق الارواح ولله در المتنبي حيث قال

مَن يُهن يسهل الهوان عليهِ ما لجرح بميت ايلامُ

ولو لم تبادر الحكومة المصرية الى انقاذ بلاد السودان من مخالب المهدوية لاضمحلَّ مَن فيها او اضمحلت الى مستعمرات الدول الاوربية